- ١ -

التعريف بالعلم
وبيان نشأته وتطوره

القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة التى لا يزيدها التقدم العلمى إلا رسوخًا فى الإعجاز ، أنزله الله على رسولنا محمد ﷺ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، فكان صلوات الله وسلامه عليه يبلغه لصحابته - وهم عرب خُلَّص - فيفهمونه بسليقتهم ، وإذا التبس عليهم فهم آية من الآيات سألوا رسول الله ﷺ عنها .

روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال : « لما نزلت هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ (١) شق ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) ، إنما هو الشرك » .

وكان رسول الله ﷺ يُفَسِّر لهم بعض الآيات .

أخرج مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (٣) ألا إن القوة الرمى ».

وحرص الصحابة على تلقى القرآن الكريم من رسول الله ﷺ وحفظه وفهمه ، وكان ذلك شرفًا لهم .

عن أنس رضى الله عنه قال : « كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا » أى عَظُم .

وحرصوا كذلك على العمل به والوقوف عند أحكامه .

---

(١) الأنعام : ٨٢ (٢) لقمان : ١٣ (٣) الأنفال : ٦٠

رُوِىَ عن أبى عبد الرحمن السلمى ، أنه قال : « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلَّموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا » (١) .

ولم يأذن لهم رسول الله ﷺ فى كتابة شىء عنه سوى القرآن خشية أن يلتبس القرآن بغيره .

روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « لا تكتبوا عنى ومَن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدِّثوا عنى ولا حَرَج ، ومن كَذَب علىَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » .

ولئن كان رسول الله ﷺ قد أذن لبعض صحابته بعد ذلك فى كتابة الحديث فإن ما يتصل بالقرآن ظل يعتمد على الرواية بالتلقين فى عهد رسول الله ﷺ ، وفى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

جاءت خلافة عثمان (٢) رضى الله عنه ، واقتضت الدواعى - التى سنذكرها فيما بعد (٣) - إلى جمع المسلمين على مصحف واحد ، فتم ذلك ، وسُمِىَ بالمصحف الإمام ، وأُرسلت نسخ منه إلى الأمصار ، وسُمِيَت كتابته بالرسم العثمانى ، نسبة إليه ، ويُعتبر هذا بداية لعلم « رسم القرآن » .

ثم كانت خلافة علىّ رضى الله عنه ، فوضع أبو الأسود الدؤلى بأمر منه قواعد النحو ، صيانة لسلامة النطق ، وضبطًا للقرآن الكريم ، ويعتبر هذا كذلك بداية لـ «علم إعراب القرآن » .

---

(١) أخرج عبد الرزاق ما فى معناه ، عن معمر ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى عبد الرحمن السلمى ، وأخرجه ابن جرير فى مقدمة تفسيره عن عطاء ، عن أبى عبد الرحمن وصحَّحه أحمد شاكر ، فإن أبا عبد الرحمن السلمى تابعى لا يُحَدِّث إلا عن الصحابة .

(٢) لقد جُمِعَ القرآن أول جمع فى عهد الخليفة أبى بكر رضى الله تعالى عنه بعد معركة اليمامة كما سيأتى .

(٣) انظر بحث جمع القرآن فى عهد عثمان .

استمر الصحابة يتناقلون معانى القرآن وتفسير بعض آياته على تفاوت فيما بينهم ، لتفاوت قدرتهم على الفهم ، وتفاوت ملازمتهم لرسول الله ﷺ ، وتناقل عنهم ذلك تلاميذهم من التابعين .

ومن أشهر المفسرين من الصحابة : الخلفاءَ الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس، وأُبَيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير .

وقد كثرت الرواية فى التفسير عن : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأُبَيّ بن كعب ، وما رُوِىَ عنهم لا يتضمن تفسيرًا كاملاً للقرآن ، وإنما يقتصر على معانى بعض الآيات ، بتفسير غامضها ، وتوضيح مجملها .

أما التابعون ، فاشتهر منهم جماعة ، أخذوا عن الصحابة ، واجتهدوا فى تفسير بعض الآيات .

فاشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعِكرمة مولى ابن عباس ، وطاوس بن كيسان اليمانى ، وعطاء بن أبى رباح .

واشتهر من تلاميذ أُبَيّ بن كعب بالمدينة : زيد بن أسلم ، وأبو العالية ، ومحمد ابن كعب القرظى .

واشتهر من تلاميذ عبد الله بن مسعود بالعراق : علقمة بن قيس ، ومسروق ، والأسود بن يزيد ، وعامر الشعبى ، والحسن البصرى ، وقتادة بن دعامة السدوسى.

قال ابن تيمية : « وأما التفسير ، فأعلم الناس به أهل مكة ، لأنهم أصحاب ابن عباس ، كمجاهد ، وعطاء بن أبى رباح ، وعِكرمة مولى ابن عباس ، وغيرهم من أصحاب ابن عباس ، كطاوس ، وأبى الشعثاء ، وسعيد بن جبير وأمثالهم ، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم ، وعلماء أهل المدينة فى التفسير ، مثل : زيد بن أسلم الذى أخذ عنه مالك التفسير ، وأخذ عنه أيضًا ابنه عبد الرحمن ، وعبد الله بن وهب » (١) .

---

(١) « مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير » (ص١٥) .

والذى رُوِىَ عَن هؤلاء جميعًا يتناول : علم التفسير ، وعلم غريب القرآن ، وعلم أسباب النزول ، وعلم المكى والمدنى ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، ولكن هذا كله ظل معتمداً على الرواية بالتلقين .

جاء عصر التدوين فى القرن الثانى ، وبدأ تدوين الحديث بأبوابه المتنوعة ،وشمل ذلك ما يتعلق بالتفسير ، وجمع بعض العلماء ما رُوِىَ من تفسير للقرآن الكريم عن رسول الله ﷺ ، أو عن الصحابة ، أو عن التابعين .

واشتهر منهم : يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هجرية ، وشُعْبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هجرية ، ووكيع بن الجرَّاح المتوفى سنة ١٩٧ هجرية ، وسفيان بن عُيينة المتوفى سنة ١٩٨ هجرية ، وعبد الرزاق بن همَّام المتوفى سنة ٢١١ هجرية .

وهؤلاء جميعًا كانوا من أئمة الحديث . فكان جمعهم للتفسير جمعًا لباب من أبوابه ، ولم يصلنا من تفاسيرهم شيء مكتوب سوى مخطوطة تفسير عبد الرزاق ابن همام .

ثم نهج نهجهم بعد ذلك جماعة من العلماء وضعوا تفسيراً متكاملاً للقرآن وفق ترتيب آياته ، واشتهر منهم ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هجرية .

وهكذا بدأ التفسير أولاً بالنقل عن طريق التلقى والرواية ، ثم كان تدوينه على أنه باب من أبواب الحديث ، ثم دُوِّن على استقلال وانفراد ، وتتابع التفسير بالمأثور، ثم التفسير بالرأى .

وبإزاء علم التفسير كان التأليف الموضوعى فى موضوعات تتصل بالقرآن ولا يستغنى المفسر عنها .

فألَّف علىّ بن المدينى شيخ البخارى المتوفى سنة ٢٣٤ هجرية فى أسباب النزول.

وألَّف أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هجرية فى الناسخ والمنسوخ ، وفى القراءات .

وألَّف ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هجرية فى مُشْكَل القرآن .

وهؤلاء من علماء القرن الثالث الهجرى .

وألَّف محمد بن خلف بن المرزبان المتوفى سنة ٣٠٩ هجرية : « الحاوى فى علوم القرآن » .

وألَّف أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨ هجرية فى « علوم القرآن » .

وألَّف أبو بكر السجستانى المتوفى سنة ٣٣٠ هجرية فى « غريب القرآن » .

وألَّف محمد بن علىّ الأدفوى المتوفى سنة ٣٨٨ هجرية « الاستغناء فى علوم القرآن » .

وهؤلاء من علماء القرن الرابع الهجرى .

ثم تتابع التأليف بعد ذلك .

فألَّف أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هجرية فى « إعجاز القرآن » . وعلىّ ابن إبراهيم بن سعيد الحوفى المتوفى سنة ٤٣٠ هجرية فى « إعراب القرآن » .

والماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هجرية فى « أمثال القرآن » .

والعز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠ هجرية فى « مجاز القرآن » .

وعلم الدين السخاوى المتوفى سنة ٦٤٣ هجرية فى « علم القراءات » .

وابن القيم المتوفى سنة ٧٥١ هجرية فى « أقسام القرآن » .

وهذه المؤلَّفات يتناول كل مؤلف منها نوعًا من علوم القرآن وبحثًا من مباحثه المتصلة به .

أما جمع هذه المباحث وتلك الأنواع ـ كلها أو جلها ـ فى مؤلف واحد فقد ذكر الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى فى كتابه « مناهل العرفان فى علوم القرآن » [1] أنه ظفر فى دار الكتب المصرية بكتاب مخطوط لعلىّ بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحوفى ، اسمه « البرهان فى علوم القرآن » ، يقع فى ثلاثين مجلدًا ، يوجد منها خمسة عشر مجلدًا غير مرتبة ولا متعاقبة ، حيث يتناول المؤلف الآية من آيات القرآن الكريم بترتيب المصحف فيتكلم عما تشتمل عليه من علوم القرآن ، مفرِدًا كل نوع

---

(١) انظر (١/٢٧) ، وما بعدها ، ط . الحلبى .

بعنوان ، فيجعل العنوان العام فى الآية : « القول فى قوله عز وجل . . . » ويذكر الآية ، ثم يضع تحت هذا العنوان : « القول فى الإعراب » ، ويتحدث عن الآية من الناحية النحوية واللُّغوية ، ثم « القول فى المعنى والتفسير » ويشرح الآية بالمأثور والمعقول ، ثم « القول فى الوقف والتمام » ويبين ما يجوز من الوقف وما لا يجوز، وقد يُفْرِد القراءات بعنوان مستقل فيقول : « القول فى القراءة » ، وقد يتكلم عن الأحكام التى تؤخذ من الآية عند عرضها .

والحوفى بهذا النهج يعتبر أول من دَوَّن علوم القرآن ، وإن كان تدوينه على النمط الخاص الآنف الذكر ، وهو المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

ثم تبعه ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هجرية فى كتابه « فنون الأفنان فى عجائب علوم القرآن » (١) .

ثم جاء بدر الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ هجرية وألَّف كتابًا وافيًا سمَّاه : «البرهان فى علوم القرآن » (٢) .

ثم أضاف إليه بعض الزيادات جلال الدين البلقينى المتوفى سنة ٨٢٤ هجرية فى كتابه « مواقع العلوم من مواقع النجوم » .

ثم ألَّف جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هجرية كتابه المشهور « الإتقان فى علوم القرآن » .

ولم يكن نصيب علوم القرآن من التأليف فى عصر النهضة الحديثة أقل من العلوم الأخرى ، فقد اتجه المتصلون بحركة الفكر الإسلامى اتجاهًا سديدًا فى معالجة الموضوعات القرآنية بأسلوب العصر ، مثل كتاب « إعجاز القرآن » لمصطفى صادق الرافعى ، وكتابى « التصوير الفنى فى القرآن » ، و« مشاهد القيامة فى القرآن » للشهيد سيد قطب ، و« ترجمة القرآن » للشيخ محمد مصطفى المراغى ، وبحث فيها لمحب الدين الخطيب ، و« مسألة ترجمة القرآن » لمصطفى صبرى ، و« النبأ

---

(١) توجد منه نسخة مخطوطة غير كاملة فى المكتبة التيمورية .

(٢) نشره وحققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم فى أربعة أجزاء .

العظيم » للدكتور محمد عبد الله دراز ، ومقدمة تفسير « محاسن التأويل » لمحمد جمال الدين القاسمى .

وألَّف الشيخ طاهر الجزائرى كتابًا سمَّاه « التبيان فى علوم القرآن » .

وألَّف الشيخ محمد على سلامة كتابه : « منهج الفرقان فى علوم القرآن » ، تناول فيه المباحث المقررة بكلية أصول الدين بمصر تخصص الدعوة والإرشاد .

وتلاه الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى فألَّف كتابه « مناهل العرفان فى علوم القرآن » .

ثم الشيخ أحمد أحمد علىّ فى « مذكرة علوم القرآن » التى ألقاها على طلابه بالكلية ، قسم إجازة الدعوة والإرشاد .

وصدر أخيرًا : « مباحث فى علوم القرآن » للدكتور صبحى الصالح .

وللأستاذ أحمد محمد جمال أبحاث « على مائدة القرآن » .

هذه المباحث جميعها هى التى تُعرف بعلوم القرآن ، حتى صارت عَلَمًا على العلم المعروف بهذا الاسم .

والعلوم : جمع علم ، والعلم : الفهم والإدراك ، ثم نُقِلَ بمعنى المسائل المختلفة المضبوطة ضبطًا علميا .

والمراد بعلوم القرآن : العلم الذى يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول ، وجمع القرآن وترتيبه ، ومعرفة المكى والمدنى ، والناسخ والمنسوخ ، والمُحْكَم والمتشابه ، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن .

وقد يسمى هذا العلم بأصول التفسير ، لأنه يتناول المباحث التى لا بد للمفسر من معرفتها للاستناد إليها فى تفسير القرآن (١) .

* * *

(١) اكتفينا بهذا العرض التاريخى مع التعريف الإجمالى عن البحث فى لفظ : « علوم القرآن » باعتباره مركبًا إضافيًا ، وباعتباره عَلَمًا على هذا الفن .